مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: تجليات الرحلة في شعر ابن دراج القسطلي
اسم الكاتب: د. حسناء أقدح
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2770
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 06:56 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

تجليات الرحلة في شعر ابن دراج القسطلي

د. حسناء أقدح*

الملخص

تناول هذا البحث جانبًا وجدانيًا من حياة الشاعر ابن دراج القسطلي، فوقف على شعر الرحلة الذي يتردد صداه في معظم قصائده.

تضمن البحث لمحة عن حياة الشاعر وعصره، ومفهوم الرحلة وتعريفها، ثم وقف على أسباب رحله ومراحلها، ويمضي مع الشاعر في رحلته إلى الممدوح واصفًا الغربة، والسعي على العيال، ومظاهر الرحلة التي تتجلى في تصوير مشاهد الوداع، ومعاناة الأولاد، ووصف أهوال الرحلة، والتعبير عن مشاعر الشوق اللاعج إلى الأوطان، لينتهي إلى النتائج المتوخاة من البحث.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

Travel Manifestations
Ibn Darrage Alkastali's Poetry

Dr. Hasnaa Akdah *

Abstract

This research addresses the emotional aspects of the life of the poet Ibn Darrage Alkastali to highlight his travel poetry that resonates in most of his poems.

The research provides an overview of the life of the poet, the age he lived in, and the concept of travel and its definition. It highlights the poet's travels and their causes and stages. The study also discusses how the poet describes his travels and the longing to one's homeland, while toiling for one's family away from one's country. The research provides also an in-depth description of the poet's attempts to describe painful scenes of parting, farewells, the horrors of the journey and the suffering of the children who are left without the head of the family, along with longing for one's homeland.

*Faculty of Letters and Humanities, University of Damascus.

ترجمة ابن دراج:

ابن دراج، أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج، يكنى أبا عمر، ويلقب بالقسطلي نسبة إلى بلده ومسقط رأسه (قَسْطَلَّة) من أعمال جيان، التي كانت تعرف بقَسْطَلَّة دراج؛ إذ كان أجداده سادتها وحكامها، ويعود نسبه إلى قبيلة صنهاجة البربرية.

ولد ابن دراج سنة (347هـ/958م) وتوفي سنة (421هـ/1030م)، وعاش في عهد ملوك الطوائف، وكان من كتاب الإنشاء أيام المنصور بن أبي عامر وابنه[1]، وقال عنه الثعالبي: "كان بصُقع الأندلس كالمتنبي بصُقع الشام، وهو أحد الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول"[2]. "وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس"[3]، "وعرف شاعرًا مادحًا أكثر منه شاعرًا شاكيًا"[4].

وقد شهد ابن دراج أحداث الفتنة القرطبية وهو في الخمسين من عمره[5]، وتأثر بها، وعانى منها، وأحدثت هذه الفتنة لديه صراعًا نفسيًا ومعاناة حقيقية، واضطرته ظروفها السياسية إلى الرحيل، فضرب في مناكب الأرض وأصقاعها، بحثًا عن مجير يرتزق من عطاياه، وينفق لديه بضاعته، ويحقق عنده طموحه وآماله. فكثرت أسفاره وتنقلاته كما يظهر في قوله[6](من الكامل):

وَلَكَمْ وَصلتُ تنائفًا بتنائفٍ حَتَّى وَصَلْتُ مشارِقًا بمَغارِبِ

سعيًا منه إلى تحقيق حلمه بمأوى يضم شمله المتفرق.

1 ديوان ابن دراج القسطلي: تح: محمود مكي، ص: 21–80.
2 يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبي منصور الثعالبي، تح: مفيد قميحة، ص: 2–119.
3 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، ص: 60/1.
4 الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، ص: 20.
5 تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة: إحسان عباس، ص: 237.
6 الديوان: ص: 111.

مفهوم الرحلة:

حضرت الرحلة في حياة العربي قديمًا وحديثًا، وشغلت مكانًا مميزًا في ثقافته، ولم تخرج في مفهومها عن الانتقال والتحول والحركة من مكان إلى آخر، وإن تنوعت أسبابها ودواعيها. إذ تعد الرحلة "استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل الإلحاح للحركة والانتقال"[1]، تصل في بعض الأحيان إلى حد الضرورة.

وقد عرَّف الإمام الغزالي السفر بأنه "نوع حركة ومخالطة"[2]، وأوضح أن "الفوائد الباعثة على السفر، لا تخلو من هرب أو طلب"[3].

وتنوعت الرحل بتنوع دوافعها، وشكلت الدوافع السياسية والاجتماعية والدينية أبرزها وأهمها[4]. وأصبحت عند شعراء الأندلس ظاهرة واقعية فرضتها طبيعة الأندلس الجغرافية. واتبع فيها الشاعر الأندلسي منهج شعراء المشرق الذين عرفوا الرحلتين البرية والبحرية على حد سواء.

أسباب رحلته:

بعد رحلة ابن دراج إلى قرطبة واستقراره فيها، شكلت فتنتها وأحداثها الدافع الأكبر الذي أجبره على الرحيل والاغتراب[5]، فقد أخرجته هذه الفتنة من قرطبة، وجرفته في سيلها، وجعلته رجلًا متشردًا، كثير التنقل والارتحال، وحولته "إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع، ينقل معه أولاده حيثما انتقل"[6]، بحثًا عن الأمن والاستقرار والطموح، وقد وصف ابن دراج تلك الفتنة بقوله[7] (من الكامل):

فـــي جاهِلِيَّـــةِ فِتْنَـــةٍ عُبِـــدَتْ بِهَـــا دُونَ الإِلـــــهِ مَضَـــــلَّةُ الأَرْبـــــابِ

1 الرحلة العربية في المحيط الهندي: صلاح الدين الشامي، الكويت، 13(4)، 1983، ص: 13.
2 إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص: 2-245.
3 المصدر نفسه: ص: 2-245.
4 الرحلة في الأدب العربي- حتى نهاية القرن الرابع الهجري: ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1995، ص: 32- 33.
5 للتوسع في هذا الموضوع؛ انظر: الذخيرة: لابن بسام، ص: 1-1/33 وما بعدها.
6 تاريخ الأدب الأندلسي-عصر سيادة قرطبة: إحسان عباس، ص: 236.
7 الديوان: ص: 184.

تُسْتَقْسَـــمُ الأَزْلامُ[1] فِـــي مُهَجَاتِنَـــا وتســيلُ أنْفُسُــنا عَلَــى الأَنْصَــابِ

غِيَــرًا مــن الأَيَّــامِ أَصْــبَحَ ماؤُهــا غَــوْرًا وأُعْقِــبَ صَــفْوُها بِعِقَــابِ

وبوارِقًــا للغَــيِّ أُضْــرِمَ نُورُهــا نــارًا وصــابَ غَمَامُهــا بالصَّــابِ

فلهــا فَقَــدْتُ الــنَّفْسَ إلّا قَــدْرَ مَــا أَشْــجى بِــهِ لِحُلُــولِ كُــلِّ مُصــابِ

وبهــا رَزَيْــتُ الأَهْــلَ إلّا لابِسًــا بُؤْسًــا يَزِيــدُ بِــهِ أَلِــيمُ عَــذَابِي

وقد كان من شديد أثرها في نفسه أن عدَّها عهد جاهلية تستقسم فيها الأزلام، وعانى الناس منها المصائب التي أدت بهم إلى التشرد والضياع، وملأت هذه الفتنة قلوبهم قلقًا واضطرابًا، دفع الناس إلى الرحيل بحثًا عن الأمن والاستقرار؛ وشكلت "البداية لمعاناة ابن دراج والمنطلق لمسلسل ترحاله"[2].

وأذكت نار الرحيل في قلب ابن دراج سعيه على عياله، وطلب الرزق، والهرب من الظلم، وهو ما أدى إلى كثرة تنقله بين المدن والأقاليم؛ فطرق باب الملوك والأمراء عارضًا بضاعته في سبيل الارتزاق والعيش الرغيد "لعله يجد في رحابهم ما يفي بحوائجه وحاجات أسرته المادية والمعنوية"[3].

مراحل رحلته:

غادر ابن دراج بلده قَسْطَلَّة متجهًا إلى قرطبة التي كانت آنذاك بلاطًا للعامريين، وأقام في أكنافهم مدة طويلة، عمل خلالها في ديوان إنشاء المنصور بن أبي عامر وابنه، ولقي ابن دراج منهما الحفاوة والتكريم.

ولما حدثت الفتنة القرطبية سنة (399هـ) بقي ابن دراج في قرطبة حتى سنة (403هـ) "وهو يعلل نفسه برجاء انقشاع الأزمة وانجلاء الفتنة"[4]، حتى ضاقت به الحال،

1 الأزلام: السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، مكتوب عليها أمر ونهي، وافعل ولا تفعل.
2 الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، ص: 91.
3 قصيدة المديح في الأندلس: أشرف نجا، ص: 221.
4 الديوان: ص: 64.

الحال، فضرب في مناكب الأرض بحثًا عن مستقر جديد. فغادر الأندلس وعبر إلى سبتة، "وقد كانت هذه أول رحلة لابن دراج خارج حدود الأندلس وآخرها"[1]، وبدأت بذلك "مصارعة أمواج البحر، ومعاناة الهجير، والحنين والحسرة الدائمة على الوطن المفقود"[2].

ولكن ابن دراج لم يحقق طموحه من الحموديين، فعاد إلى الأندلس قاصدًا أقاليمها، وقد تردد " بين سنتي (404هـ-1014م) و (408هـ-1018م) بين المرية وبلنسية وشاطبة وطرطوشة مادحًا أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل"[3].

ثم قدم إلى سرقسطة سنة (408هـ) قاصدًا بلاط منذر بن يحيى التجيبي، "ولم يخب أمل ابن دراج في هذه المرة، فقد أتيح له في سرقسطة جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة"[4].

وبقيت علاقته بحاكمها في أحسن حالاتها، إلى أن تولى يحيى بن منذر الحكم، فأصيبت هذه العلاقة بشيء من الفتور، جعل ابن دراج يغادر سرقسطة، ويتجه إلى بلاط مجاهد العامري في دانية؛ إذ رأى في مجاهد "آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس"[5]، وبقي فيها إلى أن توفي سنة (421هـ).

تجليات الرحلة في شعر ابن دراج:

يصور ابن دراج في شعره قساوة رحله ومشاقّها، ومعاناته وغربته، وضياعه وتشرّده، وتشتّت أفراد أسرته، ويصف شوقه وحنينه، ويبكي ذكرياته الزاهرة وماضيه المجيد. ونميز في رحل ابن دراج:

1- رحلته إلى الممدوح.

2- رحلة الغربة والسعي على العيال، وتتجلى مظاهرها في:

أ ـ تصوير مشاهد الوداع. ب ـ تصوير معاناة الأولاد.

---

1 المصدر نفسه: ص: 67.
2 الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، ص: 93.
3 الديوان: ص: 68.
4 المصدر نفسه: ص: 72.
5 المصدر نفسه: ص: 78.

ت ـ وصف الرحل وأهوالها. ج ـ وصف الشوق والحنين.

تدل رحل ابن دراج على تجربة شخصية، عانى مرارتها كثيرًا، ونفث من آلامها زفرات وأنات، وتمتاز "بأنها تحمل وجهين لكل منهما أبعاده النفسية التي تمتد لتكون بعدًا إنسانيًا يتغلغل في المجتمع، وينطبق على ما تعانيه مجموعات كبيرة من النفوس البشرية"[1].

1_ رحلة ابن دراج إلى ممدوحه:

تتجلى الرحلة في شعر ابن دراج، وتعكس طابعًا إنسانيًا، وشعورًا حقيقيًا صادقًا، وغربة نفسية، مصدرها الماضي بلذته وألمه؛ لذته باسترجاع ذكرياته، وألمه بالحزن والأسى على فراق تلك المعاهد والديار، فيتنقل ابن دراج على أبواب الملوك والأمراء طالبًا الأمان والرجاء، وباحثًا عن الاستقرار، وساعيًا على العيال.

فمنذ غادر قَسْطَلَّة إلى قرطبة، ووجد نفسه بعيدًا عن أهله وخلانه ووطنه، أخذ يشعر بالضياع والتشتت. ففي خطاب المنصور بن أبي عامر في قرطبة يقول[2]:(من البسيط)

هل أَنت مُدْرِكُ آمالي فمحييها ومُبْدِلِي فِي الورى من ذِلَّتِي تِيها؟

ففيه يرى ابن دراج بارقة الأمل، يُحيي آماله التي ماتت أو كادت، ويُبدله بالذل الذي حاصره حتى كاد يخنقه فخرًا وتيهًا يمشي به في الناس.

ويصور ابن دراج رحلته إلى المنصور ومشاقها بقوله[3]:(من الطويل)

رَحلْتُ لَهَا أَدْماءَ[4] وَجْناءَ حُرَّةً وشيكًا بأَوْبَاتِ السرور سُرَاها

1 قصيدة المديح الأندلسية – دراسة تحليلية: فيروز الموسى، ص: 374.
2 الديوان: ص: 9.
3 المصدر نفسه: ص: 12–13.
4 أدماء: أي بيضاء، والأدمة في الناس السمرة، وفي الإبل والظباء البياض الشديد؛ والوجناء: هي الناقة التامة الخلق الغليظة لحم الوجنة.

أَشُـجُّ بِهَـا والليـلُ مُـرْخٍ سُـــــــدُولَه سَـبَارِيتَ[1] أَرضٍ لا يُـرَاعُ قطاهــا

وَأُحْيِـي نُفُوسَ الرَّكْبِ من مِيتَـةِ الكَرى ـ وَقَدْ عَطَفَ الليلُ التَّمامُ طُلَاها ـ

بِـذِكْرِ أَيــادِي العــامِرِيِّ الَّتِــي طَمَـتْ عَلَــى نَــأْيِ آفــاقِ الــبِلادِ مُنَاهــا

وقلــتُ لِنَضْــوٍ فــي الزِّمــام رَذِيَّــةٍ[2] تَشَكَّى إلى الأرضِ الفضاءِ وَجَاها[3]

عســى راحــةُ المَنْصُـورِ تُعْقِـبُ رَاحــةً وَحَــتْمٌ لآمـــال العُفَــاةِ عَســاها

يسير ابن دراج في هذا الوصف على نمط القصيدة الجاهلية، فيذكر أنه ارتحل على ناقة وجناء حرة، تسير ليلًا عبر صحراء شاسعة ومقفرة، يستثير بذلك عواطف ممدوحه لتخفيف أعباء هذه الرحلة وتعبها، وطلبًا للأمن والاستقرار اللذين ينشدهما في ظلال المنصور العامري.

وينشد ابن دراج من رحلته القربى من المنصور، فيقول[4]: (من الكامل)

فقطعـتُ يَـا منصـورُ نحـوَكَ نَازِعًـا خُـدَعَ المنــى وعلائـقَ الأَسـبابِ

فرِضَــاكَ تــأْميلي وقربُــكَ هِمَّتِــي ونــداكَ مَحْيــاي وحمــدُكَ دَابِــي

وقــد احتلَلْــتُ لــديكَ أَمْنَــعَ مَعْقِــلٍ وَحَطَطْتُ رحلي فِي أَعَزِّ جَنَــابِ

يذكر ابن دراج أن رضا المنصور والتقرب منه سبب رحلته، مما حدا بالمنصور أن يجعله في أمنع المعاقل وأعزها مكانة.

ولبث ابن دراج في بلاط المنصور أمدًا غير قليل، حتى أطاحت به الفتنة الشنعاء سنة (399هـ)، وانقلبت الدويلات على قرطبة، وحكمها محمد بن عبد الجبار أمير

1 سباريت: الأرض التي لا ينبت فيها شيء؛ انظر: لسان العرب، مادة (سبرت)
2 الرذية من الأبل الناقة المهزولة.
3 الوجا: الحفى، وهو أن يشتكي البعير باطن خفه.
4 الديوان: ص: 16-17.

المؤمنين آنذاك، فانتاب ابنَ دراج إحساسٌ بالضياع فضلًا عن إحساس الاغتراب، يدل عليه قوله في مخاطبة ابن عبد الجبار[1]: (من الكامل)

وأَنـــا الشَّـــريدُ وظـــلُّ عِـــزِّكَ مَـــوئِلِي وأَنـــا الأَســـيرُ وَفِـــي يـــديكَ فِكـــاكِي

فراحته كما كان يأمل في ظل هذا الأمير. لكنه لم يجد ما يسد حاجته. فبدأ مسلسل رحله، فاتجه إلى سبتة بلاط بني حمود، ووصف رحلته إلى ممدوحه بقوله[2]: (من المتقارب)

خطيبـــاتِ خَطْـــبِ النَّـــوى والـــمُهُورُ مَهـــارى عليهـــا رِحـــالُ الرَّحيـــلِ

فَمِـــنْ حُـــرَّةٍ جُلِيَـــتْ بِـــالجلاءِ وعَـــذْرَاءَ نُصَّـــتْ بنـــصِّ الذَّمِيـــلِ

ولا حَلْـــيَ إلّا جُمـــانُ الـــدُّموعِ يَســـيلُ عَلَـــى كُـــلِّ خَـــدٍّ أَسِـــيلِ

فَبُـــدِّلْنَ مِـــنْ بَعـــدِ خفـــضِ النَّعـــيمِ بشَـــقِّ الحُـــزُونِ[3] وَوعْـــثِ السُّـــهولِ

ومِـــنْ قِصَـــرِ اللَّيـــلِ تَحْـــتَ الحِجـــالِ[4] بِهَـــوْلِ السُّـــرى تَحْـــتَ ليـــلٍ طويـــلِ

وَمِـــنْ عَلَـــلِ المـــاءِ تَحْـــتَ الظِّـــلالِ صِـــلاءَ القُلـــوبِ[5] بحَـــرِّ الغليـــلِ

وَمِـــنْ طِيـــبِ نَفْـــحٍ بنَـــوْرِ الرِّيـــاضِ تَلظِّـــيَ لَفْـــحٍ بِنـــارِ المَقِيـــلِ

ومـــن أُنسِـــها بَـــيْنَ ظِئْـــرٍ[6] وتِـــربٍ سُـــرى لَيْلِهـــا بَـــيْنَ ذيـــبٍ وغـــولِ

ومـــن كُـــلِّ مـــرأى مُحيَّـــا جَميـــلٍ تَلقِّـــي الخُطُـــوبِ بِصَـــبْرٍ جَميـــلِ

1 الديوان: ص: 53.
2 المصدر نفسه: ص: 78–79.
3 الحزون: جمع (الحزن): ما غلظ من الأرض؛ انظر: لسان العرب، مادة (حزن).
4 الحجال: واحدتها (الحَجَلَة): بيت كالقبة يتخذ للعروس، يزين بالثياب والستور والأسرة.
5 صلاء القلوب: شدة المعاناة وقساوتها؛ والغليل: شدة الحر والعطش.
6 الظِّئْر: المرضعة لولد غيرها، أو العاطفة عليه.

لَعَـــــلَّ عواقِبَـــــهُ أَنْ تَـــــتِمَّ فَيُهْـــدى الغَرِيـــبُ سَـــواءَ السَّـــبِيلِ

وأظهر ما يدل على معاناة ابن دراج وما يعتلج في نفسه من قلق واضطراب، تلك المفارقات التصويرية التي تكشف عن معاناة كامنة غائرة في نفسه، وتعبر عن تغير حاله، وتصور رحيله الدائم. فصور ابن دراج في هذه المفارقات الذاهلات من النساء، وما أصابهن من الهلع والخوف، فذكر قصر الليل في الحجال، وعلل الماء، والظلال الوارفة، وطيب نفح الرياض، والأنس، والوجه الحسن، وجمال الطبيعة، وقابلها بصورة الرحيل والاغتراب، فذكر طول ليل الرحيل ومشاقه، وصلاء القلوب، والحر الغليل، والتلظي بنار المقيل، ثم السرى بين الغول والذئاب. وذلك للدلالة على المشقة التي يكابدنها، وشدة معاناتهن. وعكس ابن دراج من خلال هذه المفارقات التصويرية الخوف الكامن في نفسه. وثنائية الرحلة/الاستقرار، وثنائية التوتر/ الراحة. وأمعن في الوصف أملًا بالحظوة والمكانة عند ممدوحه، فأفاض عليه بما هو أهله.

ومثل هذه الرحلة التي يبث فيها شعره آلامه وآماله، ويندفع المتلقي لها إلى مواساته، كثير. ومن ذلك رحلته إلى بلنسية، فيمدح ضابط شاطبة، ويصور رحلته بقوله[1]: (من الطويل)

أَرَحْلِـيَ مَحْمُـولٌ عَلَـى العُتُـقِ النُّجْـبِ[2] يَؤُمُّـكَ أَمْ سـارٍ عَلَـى القُـتُمِ[3] النُّكْـبِ؟

يقـودُ بِهَـا هـادٍ إِلَـى الأَمْـرِ والمُنـى ويَحْدو بِهَا حادٍ عَلَى الخوفِ والرُّعْبِ

طـوَتْ فَلَـوَاتِ الأَرْضِ نَحْـوَكَ وانْطَـوَتْ كَبَـدْرٍ إِلَـى مَحْـقٍ بشَـهرٍ إِلَـى عُقْـبِ

تعـــاوَرَهُنَّ البَـــرُّ والبحـــرُ مثلَمـــا تُـــرَدُّ بأيـــدي الرُّسْـــلِ أَجوِبَـــةُ الكتْـــبِ

فَلَيْـلٌ إِلَـى صُـبْحٍ، وصَـبْحٌ إِلَـى دُجًـى وكَـــرْبٌ إِلَـــى رَوْحٍ، وروحٌ إِلَـــى كَـــرْبِ

1 الديوان: ص: 95-96.
2 العتق النجب: كرام الأبل وأحسنها.
3 القتم: ما كان لونه أغبر ضاربًا إلى سواد، أو حمرة.

وســهلٌ إِلَــى حَــزْنٍ، وحــزنٌ إِلَــى فــلًا وسَهْــبٌ إِلَى بَحــرٍ وبَحــرٌ إِلَى سَهْبِ

ويَقضِـــمْنَ أَطـــرافَ الهَشِـــيمِ تَبلُّغًـــا إِلَى الرَّوْضَةِ الغنَّاءِ فِي المَشربِ العَذْبِ

أُنَسِّـــمُها رَيَّـــاكَ فـــي نفحـــةِ الصَّـــبا وأَجلُـو لهـا سِـيماكَ فـي أَوْجُـهِ الشُّـهْبِ

وأُسْـــمِعُها دَاعيـــكَ فِـــي كُـــلِّ مَنْهَـــلٍ هَلُـــمَّ إِلَـــى الإِكْـــرَامِ والمنـــزِلِ الرَّحْـــبِ

فيـه يصـور ابـن دراج رحيلـه علـى أجـود أنـواع النـوق وأمنعهـا وأقـدرها، سـيرها متواصل، يصلن فيه الليل بالنهار، من عسر إلى يسر، ومن ارتفاع إلى انخفاض. كان البر والبحر وأهوالهما فيه هاجسين كبيرين لابن دراج، عكسا توترًا شديدًا وخوفًا، برزا في ألفاظـه المتضـادة (البر/البحـر، ليل/صـبح، كـرب/روح، سـهل/حزن، سـهب/بحر) التـي تعكس الهموم المحيطـة بـه ثنائيـة الماضي/الحاضـر التـي مزقـت نفسـه كـل ممـزق بـين جمال ماضيه وقسوة حاضره. وأبرز هذا التضـاد الجانـب النفسـي القلق والمضـطرب لابن دراج، الذي كان يمني نفسه بالخير الذي سيحظى به عند ممدوحه، والروضة الغناء التي يحلم بها، وهنائـه في المشرب العذب، والحفاوة والتكريم في المنزل الرحب؛ وينظر إلـى تجلية همومه وإيواء أطفاله، والاستقرار في أمن وأمان تحت راية الممدوح.

إلا أنه لم يجد لدى ممدوحه ما يحقق طموحه وآماله، فشعر بغربة مكانية، وتابع رحيله بحزن وألم شديدين، باحثًا عن عز وجاه مفقودين، وأمن واستقرار طالما حلم بهما بعد خروجه من قرطبة، فقطع البحار والقفار، وعانى من قسوتهما ما عانى، أملًا في تحقيق العيش الرغيد لأسرته، فحط رحاله في سرقسطة بلاط منذر بن يحيى التجيبي، الذي منى نفسه لديه بالأمل المنشود، وعبر في رحلته إليه عن رغباته وأمانيه، قال[1]: (من الكامل)

بُشْـــرَاكَ مـــن طُـــولِ التَّرَحُّـــلِ والسُّـــرى صـــبحٌ بِـــرَوْحِ السَّـــفْرِ لاحَ فأَسْـــفَرَا

1 الديوان: ص: 124– 125.

مِنْ حاجِبِ الشَّمسِ الَّذِي حَجَبَ الدجى فَجْـرًا بأَنهـارِ النَّـدَى مُتفجِّـرَا

وابن دراج يستبشر برحلته إلى بلاط التجيبيين الخير والنعيم، ويشير إلى الخير في رحابهم، فقد أسفر الصباح بعد ليل بطيء الكواكب، طويل العذاب والسرى، فلا رحيل ولا سرى، ولا قلق ولا اضطراب، بل أمن وأمان، وراحة واستقرار؛ إذ يرى في كرم المنصور منذر وعطائه، حاجبًا عن الترحال والسفر. ويدل معجمه اللغوي على هذه البشارة بألفاظ (بشراك، صبح، أسفر، الشمس، حجب الدجى، فجرًا، الندى)، التي تحمل في طياتها روحًا جديدة تنهي معاناة ترحاله وألمه.

ووجد ابن دراج في سَرَقُسْطَة الاستقرار والأمان، فلبث فيها غير قليل، وعبر عن ذلك بقوله مخاطبًا منذر بن يحيى[1]: (من الكامل)

ووجَـدْتُ عنـد يَـدَيْكَ سَـدَّ مَفَـاقِرِي[2] وسُـلُوَّ أَحزانِـي وبُـرْءَ مصـائِبِي

وقوله في مدحه على جزيل إنعامه وإيوائه[3]: (من الكامل)

وَوَجَـدْتُ ظِلَّـكَ بَعْـدَ يـأْسِ تَقَلُّبِـي وَطَـنَ الرَّجَـاءِ ومَنْـزِلَ الإِكْـرَامِ

ولْـتَعْلَمِ الآفـاقُ أَنَّـكَ مُـنْعِمٌ حقًّـا وأَنِّـيَ شـاكِرُ الإِنْعـامِ

ومشهد رحلة ابن دراج في شعره إلى الممدوح كثير الدوران، يصف فيه ما كابده في طريق رحلته، ويصور أهوال سفره، ومعاناته النفسية، وفيه يخاطب راحلته لتجد في سيرها إلى الممدوح، ومنه قوله في مقدمة مدحته في المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر[4]: (من الوافر)

أَهِلِّـي قَـدْ أَنـى لَـكِ أَنْ تُهِلِّـي إلى صَـوْبِ الغمـامِ المُسْتَهِـلِّ

1 الديوان: ص: 172.
2 المفاقر: وجوه الفقر وأشكاله. وسدَّ مفاقره؛ أغناه، وسدَّ وجوه فقره.
3 المصدر السابق: ص: 215-216.
4 المصدر نفسه: ص: 473-474.

فَمُـــدِيّ طـــرفَ نـــاظرةٍ تَرَيْنِـــي تَمَكَّـــنَ مَغْرِســـي فِيـــهِ وأصْـــلي

يطلب ابن دراج من راحلته أن تجدَّ في سيرها، وتجتاز كل المخاطر والمهامه، لتصل إلى الخير الذي لاينكفئ، والعطاء الذي لا ينقطع، فذاك ممدوحه الذي يقول فيه:

هُـوَ الظِّـلُّ الَّـذِي قارَعْـتِ عنـهُ حَصـى الرَّمْضَـاءِ دامِيَـةَ الأَظَـلِّ

وهـذا موعـدُ الأَمَـلِ المنـادي سُـــــروركِ سُـــــروركِ أَلّا تَمَلـــيِّ

ويَرْمَـدُ فِـي هجيـرِ القـيظِ جفنـي فأجعـلُ مـن سـوادِ الليلِ كُحْلـي

لكيمـا تعلَمـي فِـي أيِّ مـأوًى مـن الملـكِ الرفيـعِ وضـعتُ رَحْلِـي

وعلـى أن ابـن دراج لـم يظفـر عنـد ممدوحـه بمـا كـان يمنّـي نفسـه بـه، فـأحس بالاضطراب والقلق، وأصيب كما يرى الدكتور إحسان عباس بانهيار معنوي تام[1]، كما يبدو في قوله في مدح ابن باق[2]: (من المتقارب)

فنـاداكَ مـن غَمَـرَاتِ التَّناسِـي وناجـاكَ فِـي ظُلُمـاتِ الخُطـوبِ

بمـا خُـطَّ للجـارِ وابْـنِ السَّـبيلِ وأُوجِـبَ للمُسْتَضـامِ الغريـبِ

ففي ذلك يبلغ ابنُ دراج مرحلةً شديدة من الألم النفسي، تظهر في سوداوية ألفاظه (غمرات، ظلمات، الخطوب، المستضام، الغريب)، التي تدل على تشاؤمه، فيطلب حق الجار وابن السبيل والمستضام.

وحط ابن دراج رحاله في آخر مطاف حياته في بلاط مجاهد العامري في دانية سنة (419هـ)، ويرى محقّق ديوانه أن "شيئًا خطيرًا هو الذي دفع ابنَ دراج إلى هذه

1 انظر: تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة: إحسان عباس، ص: 231.
2 الديوان: ص: 468– 469.

الرحلة، وهو قد ناهز السبعين من عمره"[1]. وفي تلك الرحلة يخاطب ممدوحه ابن مجاهد بقصيدة مطلعها[2]: (من الطويل)

إلـــى أيِّ ذكـــرٍ غيـــرِ ذكـــرِكَ أرتـــاحُ ومـــن أيِّ بحـــرٍ بعـــد بحـــرِكَ أمتـــاحُ

فهو "يرى في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس"، ثم يصف رحلته ومشاقها ومخاطرها[3]:

إليهـــا حَـــدَتْنِي حادِثـــاتٌ كأَنَّهـــا بَـــوارِحُ يَحـــدُوهُنَّ بَـــرْحٌ[4] وأبْـــرَاحُ

عَلـى غَـولِ بحـرٍ مـن هُمـومٍ عُبابُـهُ بِرَحْلـي إلـى غَـوْلِ المتـالفِ طَـوَّاحُ

إذا رامَ تَغْرِيقِـــي فَلُـــجٌّ[5] وغَمْـــرَةٌ وإن مُدَّ في ظِمْئِـي فآلٌ[6] وضَحْضَـاحُ[7]

وحَسـبيَ منـه فِـي الهـواجِرِ والسُّـرى جَنـاحٌ لَـهُ مـن حُسـنِ ظَنِّـي وإنجـاحُ

هكذا تحدث ابن دراج عن قساوة حاضره، وعرض أحداث رحلته، وصور مشاقها، وكانت "ثنائية البر والبحر – في رؤيته – وحدة وعاملًا مشتركًا من عوامل اضطهاده: البحر والبر، هذا لإغراقه، وذاك لإحراقه، وهما معًا يتعاورانه جذبًا وتناوبًا "[8].

وأُسدِل الستار على حياة ابن دراج في الأندلس الذي رجح د. محمود مكي وفاته بدانية سنة (421هـ)[9]، بعد أن أمضاها متنقلًا من بلد إلى آخر، باحثًا عن مأوى وأمل ومستقبل، بعد أن "طوّحت به تلك الفتنةُ الشنعاء، واضطرته إلى النجعة، فاستقرى ملوكها

1 الديوان: ص: 78.
2 المصدر نفسه: ص: 478.
3 المصدر نفسه: ص: 481.
4 البرح: الشر والعذاب الشديد.
5 اللج: معظم الماء حيث لا يدرك قعره ولج البحر عرضه.
6 الآل: ما يبدو كالسراب في أول النهار وآخره.
7 الضحضاح: الماء القليل.
8 الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، ص: 127.
9 الديوان: ص: 79–80.

أجمعين، بين الجزيرة الخضراء، فسَرَقُسْطَة من الثغر الأعلى، يهز كلًا بمديحه، ويستعينهم على نكبته، وليس منهم من يصغي له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه"[1].

2_ رحلة الغربة والسعي على العيال:

الغربة بمتعلقاتها ومقتضياتها من وداع، ومعاناة أهل وأولاد، ومقاساة أهوال الارتحال، واضطرام نار الشوق والحنين؛ قطعةٌ من صميم الرحلة، لا تكاد تخلو منها مجتمعة أو متفرقة؛ إن اجتمعت في نسيج واحد فذاك، وإن تخلف شيء منها فلسبب يفسر ذلك الغياب. ولذلك بدت هذه المشاهد ترصع شعر ابن دراج الذي رصد رحله هنا وهناك، مجتمعة أو متفرقة.

أولًا ــ تصوير مشاهد الوداع:

عُني شعر الرحلة في ديوان ابن دراج بمشاهد وداع أهله التي شكلت مقدمات لقصائده. فعندما غادر مسقط رأسه إلى بلاط المنصور بن أبي عامر في قرطبة، وصف مشهد وداع زوجته وابنته ذات الثماني بقوله[2]: (من الطويل)

ولله عزمي يوم وَدَّعْتُ نحوه نُفُوسًا شجاني بَيْنُهَا وَشَجاها

وَرَبَّةَ خدرٍ كَالجُمَان دُمُوعُها عَزِيزٌ عَلَى قلبي شُطُوطُ نَوَاها

وَبِنْتَ ثمانٍ مَا يزال يَرُوعُنِي عَلَى النّأْيِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاها

وَمَوْقِفَها وَالبَيْنُ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ مَنُوطًا بحبلَيْ عَاتِقَيَّ يَدَاها

تَشَكَّى جَفَاءَ الأَقْرَبِين إِذَا النَّوى تَرَامَتْ برحلي فِي البلادِ فَتَاهَا

وَأَقسم جُودُ العَامِرِيِّ لَيَرْجِعَنْ حَفِيًّا بِهَا مَنْ كَانَ قَبلُ جَفَاهَا

1 الذخيرة: ص: 1/1/60– 61.
2 الديوان: ص: 13–14.

يصور ابن دراج في هذه الأبيات موقفًا مؤثرا، تشترك فيه الإنسانية جميعًا، وهو مشهد الوداع وألمه، والفراق وصعوبته، فنفسه تتفطر أسى ولوعة، ويعزيها بما يمنيها؛ بأنه سيجد لدى المنصور ما يحقق آماله وطموحه في الرخاء والسيادة. يتذكر مشهد وداع زوجته، ويثيره بكاؤها، فيصف دموعها ويشبهها بحبات الجمان النفيسة؛ ويصور محبتها وعزتها في نفسه، ويتأثر لبعدها. ويصور ابنته ذات ثمانية الأعوام وحالها عند فراق والدها، وقد تعلقت يداها بكتفه، متخيلًا إياها تشكو له حالهم بعد رحيله وجفاء أقاربه عنهم. فيثور في قلبه حزن وألم عميقان، تؤججهما نار الغربة والبعاد.

وهذا المشهد قرين الرحيل، يتكرر كلما قرر الرحيل. يصور فيه وداع أسرته، ويصف يوم رحيله بالصدع الذي فرق شمله، يقول[1]:(من الطويل)

ويا رُبَّ يومٍ بانَ صَدْعُ سلامِهِ ... بصَدْعِ النَّوى أَفْلاذَ قَلْبيَ إِذْ بانُوا

نُوَدِّعُهُمْ شَجْوًا بشَجْوٍ كَمِثْلِما ... أَجابَتْ حفيفَ السَّهْمِ عَوْجاءُ مِرْنانُ

ويَصْدَعُ مَا ضَمَّ الوَدَاعُ تفرُّقٌ ... كما انشَعَبَتْ تَحْتَ العواصِفِ أَغصانُ

إذا شَرَّقَ الحادي بِهِمْ غَرَّبَتْ بنا ... نوًى يَوْمُها يومانِ والحِينُ أَحيانُ

فلا مُؤْنِسٌ إلّا شهيقٌ وزَفْرةٌ ... ولا مُسْعِدٌ إلّا دُمُوعٌ وأَجْفانُ

وفي هذا النص تتضعضع نفس ابن دراج، ويتملكها الضعف والانكسار، عند اجتماع أسرته لوداعه، وتفرقهم حين رحيله كتشعب أغصان الأشجار عند هبوب العواصف. تبرز ذلك الألفاظ الدالة على الإحساس العميق بالفراق والوداع، وعلى الانكسار، وتضعضع النفس. (صدع، النوى، بانوا، شجو، تفرق، انشعبت، شرق، غرب، شهيق، زفرة، دموع أجفان)، ومفتاح ذلك كله استعمال (ربّ) الدالة على التكثير إحساسًا بتعاظم الحدث وتكاثره وشديد أثره في النفس. ويعكس ابن دراج بذلك صورة حزينة ومؤلمة، تفيض بالعواطف الإنسانية من الصدع والحزن (الشجو) والتفرق والدموع، وتشير

1 الديوان: ص: 89- 90.

إلى انهياره في موقف وداع أسرته. وعلى هذا النحو كان واقع كثير من الأسر الأندلسية آنذاك.مشاهد وداع تبرز كما يقول الدكتور أحمد هيكل ملامح من شخصية ابن دراج التي تتجلى "بإحساسه العميق بالأسرة، وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد"[1].

وعندما يحين موعد السفر، يُبين ابن دراج عن وداع زوجته وطفلها الرضيع بلوحة جميلة، ويصور لحظة الوداع وأنات زوجته وآهاتها بقوله[2]:(من الطويل)

ولَمَّـــا تـــدانَتْ للـــوداعِ وَقَـــدْ هَفـــا بصَـــبْرِيَ منهـــا أَنَّـــةٌ وزَفيـــرُ

تناشِـــدُني عَهْـــدَ المَـــوَدَّةِ والهَـــوى وَفِـــي المَهْـــدِ مبغـــومُ النِّـــداءِ صَـــغير

عَبِـــيٌّ بمرجـــوعِ الخطـــابِ ولَحْظُـــهُ بمَوْقِـــعِ أَهْـــوَاءِ النُّفـــوسِ خَبيـــرُ

ففي هذه اللوحة يصور ابن دراج حال زوجته النفسية التي تملكها الحزن واستبد بها، فلا تستطيع أن تبوح إلا بالأنات والزفرات التي تحمل في طياتها كثيرًا من المعاني المبعدة عن السفر، وتناشده بعهد ودها وحبها البقاء؛ إلا أنه يصمم على السفر؛ ويصور أيضًا طفله الرضيع في سريره، الذي يمثل جزءًا من هذا المشهد الحزين، وكأنه يستعطفه بتمتماته غير المفهومة، ونظراته المدركة الخبيرة، لكن لا مجيب، إذ يتركهما ويمتطي جناح السفر أملًا منه أن يكون رحيله عونًا له على ظروفه الصعبة وحاجته الملحة وسعيه على عياله. وتطل من وراء الكلمات في هذا المشهد حال ابن دراج النفسية، وحزنه على فراق أهله ووطنه.

ويتردد في مشهد الوداع حديث الشاعر إلى زوجته التي تعاتبه على كثرة أسفاره، فيقول من قصيدة يمدح فيها لبيبًا العامري[3]: (من الكامل)

هَـــلْ تَثْنِـــينَّ غُـــرُوبَ دمـــعٍ ســـاكِبِ مَـنْ شـامَ بارِقَـةَ الغمـامِ الصَّـائِبِ

1 دراسات أدبية: أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980، ص: 254.
2 الديوان: ص: 298.
3 المصدر نفسه: ص: 109– 110.

أَبَــتِ العزيمـــةُ مـــن فـــؤادٍ جامِـــدٍ أَنْ تَسْـــتَقِيدَ لِمـــاءِ جَفـــنٍ ذَائِـــبِ

مَـــنْ تَرْمِـــهِ حَـــدَقُ المكـــارِمِ تُصْـــبِهِ عـــن مُصْـــيباتِ أَحِبَّـــةٍ وَحَبائـــبِ

ففِـــراقُ رَبَّـــاتِ الخُـــدُورِ مُكفَّـــرٌ بِلِقـــاءِ نَجْـــمِ المكرُمـــاتِ الثَّاقِـــبِ

قالـــتْ وَقَـــدْ مَـــزَجَ الـــوداعُ مـــدامعًا بمـــــدامِعٍ وترائبًـــــا بترائِـــــبِ:

أَتَفَـــرُّقٌ حَتَّـــى بمنـــزلِ غُرْبَـــةٍ؟ كـــم نحـــنُ للأَيَّـــامِ نُهْبَـــةُ ناهِـــبِ!

ففي هذا المشهد يذكر ابن دراج حواره مع زوجته، ويصور دموعها الساكبة، ويطلب إليها باستفهام يحمل التوتر والقلق أن تكفكف دمعها (هل تَثْنِينَّ غُرُوب دمع ساكِبِ)، ثم يتغلغل إلى أعماق نفسه في البيت الثاني، متجليًا بقوة العزيمة، واصفًا نفسه برباطة الجأش (فؤادٍ جامِدٍ)، لا يلتفت لبكاء زوجته، وجاء بالصفة على وزن فاعل للدلالة على قوة عزيمته. ويرى ابن دراج أن فراق الزوجة أمر صعب؛ ولكنه يمني نفسه بلقاء ممدوح عالي المنزلة، يصفه بالنجم الثاقب. ثم ينقل استفهام زوجته الذي يحمل معنى العتاب (أَتَفَرُّقٌ حَتَّى بمنزلِ غُرْبَةٍ؟)، وفي هذه الصورة إحساس متعاظم بالحالة، ظلمة فوقها ظلمة، وفرقة في بطن غربة. وتعجبها المتكاثر بكم الخبرية (كم نحنُ للأَيَّامِ نُهْبَةُ ناهِبِ)، ويصف موقف وداعها، وذرف الدموع، والتحام الصدور، مظهرًا التوجع والتفجع لرحيله، ومبرزًا محاولة زوجته النيل من عزيمته، وثنيه عن السفر.

ثانيًا ــ تصوير معاناة الأولاد:

كان من شأن ابن دراج في شعر الرحلة والغربة أن يصور أولاده في مشاهد مؤثرة نابضة بالألم، تعكس طابعًا إنسانيًا، وتدل على معاناة قوم ألمت بهم الفتنة، وأحدقت بهم الاضطرابات، فعانوا آلامها، وتحملوا أحداثها، وانعكست معاناتها على أولادهم، الذين تشردوا في الأرض بحثًا عن الأمن والاستقرار، يقول ابن دراج[1]: (من الطويل)

1 الديوان: ص: 194.

ولَــوْلاهُمُ لَــمْ أُبْــدِ صَــفْحَةَ مُعْــدِمٍ وَلَــمْ أُسْــمِعِ الأَعْــداءَ دَعْــوَةَ مُضْــطَرِّ

فابن دراج هنا يعترف أن السعي على عياله، وتلبية احتياجاتهم، كان سببًا من أسباب الرحيل، والتنقل من مكان إلى آخر، وطرق باب الملوك والأمراء.

وهذا ابن دراج يصور، في واحدة من رحله، ستة من أبنائه، مزقتهم رياح الغربة والتشرد، فهاموا على وجوههم بحثًا عن الأمان والاستقرار، يقول من قصيدة مدح بها القاسم بن حمود العلوي في قرطبة[1]: (من الكامل)

فِــي سِــتَّةٍ ضَــعُفُوا وضُــعِّفَ عَــدُّهُمْ حَمْــلًا لمبهــورِ الفُــؤَادِ مُبَلَّــدِ

شَــدَّ الجَــلاءُ رِحــالَهُم فتَحَمَّلَــتْ أَفــلاذُ قَلْــبٍ بــالهُمُومِ مُبَــدَّدِ

وَحَــدَتْ بِهِــمْ صَــعَقَاتُ رَوْعٍ شَــرَّدَتْ أَوْطــانَهُمْ فِــي الأرضِ كُــلَّ مُشَــرَّدِ

لا ذَاتُ خِــدْرِهِمُ يُــرَامُ لِوَجْهِهَــا كِــنٌّ[2] ولا ذو مَهْــدِهِمْ بمُمَهَّــدِ

عــاذُوا بلَمْــعِ الآلِ فِــي مَــدِّ الضُّــحى مِـنْ بَعْـدِ ظِـلٍّ فِـي القُصُـورِ مُمَـدَّدِ

ورَضُــوا لبــاسَ الخــوف يَنْهَــكُ مِــنْهُمُ بِــالبُؤْسِ أَبشــارَ النَّعِــيمِ الأَرْغَــدِ

واســتَوْطَنُوا فَزَعًــا إِلَــى بَحْــرِ النَّــدى أَهْــوَالَ بَحْــرٍ ذي غَــوَارِبَ[3] مُزْبِــدِ

فهذا النص يعكس معاناة ابن دراج لتشرد أولاده، وهمه لرحيلهم الذي أثقل كاهله، بعدما حدت بأولاده صعقات هول وروع شردتهم، وقلبت حياتهم ألمًا، وقد زاد ابن دراج ذلك بيانًا بمفارقات تصويرية بين ماضي أبنائه الجميل وحاضرهم القاسي المؤلم (عاذُوا بلَمْعِ الآلِ فِي مَدِّ الضُّحى، مِنْ بَعدِ ظِلٍّ فِي القُصورِ مُمَدَّدِ)، فرضوا بحياة البؤس والشقاء

1 الديوان: ص: 74.
2 الكن: كل ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن.
3 غوارب البحر: أعالي أمواجه.

أملًا بمستقبل نعيم منشود، وركبوا البحر، وتحملوا مخاطره وأهواله وتلاطم أمواجه، أملًا بمكان آمن يشعر بالطمأنينة والعيش الرغيد.

وها هو ذا ابن دراج في أبيات أخرى يصور أولاده وحالهم في البحر والبر بقوله[1]: (من الوافر)

وكُلُّهُـــمُ كَيُوسُـــفَ إِذْ فَـــدَاهُ مِـــنَ القَتْـــلِ التَّغَـــرُّبُ والجَـــلَاءُ

وإِنْ ســـجنٌ حـــواهُ فكَـــمْ حـــواهم ســـجونُ الفُلْـــكِ والقفـــرُ القَـــواءُ

وكـــم لَبِسُـــوا مـــن النُّعْمـــى بُـــرودًا[2] جلاهـــا عـــن جســـومِهِمُ الجـــلاءُ

وقـــادَهُمُ الكتـــابُ إِلَـــى مليـــكٍ تقاضـــاهُمْ ليمنـــاهُ القضـــاءُ

فكـــمْ عســـفوا إِلَيْـــهِ لُـــجَّ بحـــرٍ تَلاقَـــى المـــاءُ فِيـــهِ والسَّـــماءُ

وجـــابوا نحـــوَهُ مـــن لُـــجٍّ قفـــرٍ يجـــاوبُ جِنَّـــهُ فِيـــهِ الحُـــداءُ

وكـــمْ صَـــحِبُوا نُجُـــومَ اللَّيْـــلِ حَتَّـــى جَلاهـــا فِـــي عُيُـــونِهِمُ الضَّـــحَاءُ

فابن دراج يرى في تغرب أبنائه وتشردهم تغربَ النبي يوسف عليه السلام عن أهله وسجنه ظلمًا واعتداءً، بل يعدّ الأهوال التي تعرضت لها أسرته بحرا وبرا أمرّ من الأهوال التي تعرض لها سيدنا يوسف عليه السلام في سجنه.

وابن دراج إذ وصف طول سفر أبنائه وأهواله ومخاطره، وصور شدة تلاطم الأمواج (تَلاقَى الماءُ فِيهِ والسَّماءُ)، وخوفهم من السير في الصحراء (يجاوبُ جِنَّهُ فِيهِ الحُداءُ)، وسراهم في الليل ومرافقتهم نجوم السماء (وكمْ صَحِبُوا نُجُومَ اللَّيْلِ)، كان يقدم حقيقة نفسه وقلقها وخوفها ومعاناتها في هذه الرحل الشاقة. ومع ذلك كان يواسي نفسه،

1 الديوان: ص: 328– 331.
2 البرود: ثياب مخططة يلتحف بها.

ويؤملها بما يتطلع إليه من رحلته. وهذا يعكس الوعي الاجتماعي الذي تبدى عند ابن دراج بعدما ذاق مرارة الغربة، وشظف الحياة.

ثالثًا ــ وصف الرحل وأهوالها:

وصف ابن دراج رحله برًا وبحرًا، وأكثر الحديث عنها، وأبرز في وصفه آلامه النفسية التي عكست همومه ومعاناته وخوفه وقلقه. فرأى في الرحيل المخاض الذي ليس لمولده رضاع[1]: (من الوافر)

مخـــاضٌ مَـــا لمولِـــدِهِ رَضـــاعٌ وتَرْحَـــالٌ أَمَـــرُّ مـــن الفِطَـــامِ

وابن دراج إذ يصف رحيله بالمخاض الذي يعكس آلامًا نفسية وجسدية، وبالمولود الذي فطم قبل أوانه، يعبر عن حالة من الفقد استبدت به وهيمنت عليه، ويبث لواعج نفس معذبة ذاقت مرارة الغربة وآلامها، واكتوت بلحظات البين والوداع.

ورأى الشاعر في الرحيل صورة الموت التي برزت في قوله[2]: (من الكامل)

ودنـا بِـهِ أَجَـلُ الرَّحِيـلِ كَأَنَّـهُ أَجَـلُ الممـاتِ دَنَـا بِـهِ المقـدارُ

فصورة الرحيل عند ابن دراج مقرونة بصورة الموت، ففيهما البعد والفراق والألم والحسرة، والرحيل يحدق به من كل صوب، فيبدو لذلك كالموت يدنو منه ليجهز عليه.

ويصف ابن دراج بعض أسفاره وصفًا يظهر المعاناة الشديدة، وتحمل الأهوال، فيقول من قصيدة مدح بها لبيبًا العامري في طرطوشة[3]: (من الكامل)

نَعَـبَ الغـرابُ بِهَـا فطـارَ بأَهلِهـا سِـرْبًا علـى مِثـلِ الغُـرَابِ النَّاعِـبِ

فِـي غَـوْلِ ذي لُجَـجٍ لَبِسْـنَ دياجيًـا تـركَ الحيـاةَ لنـا كَـأَمسِ الـذَّاهِبِ

1 الديوان: ص: 231.
2 المصدر نفسه: ص: 156.
3 المصدر نفسه: ص: 110.

قاســـــيتُهُنَّ غواربًـــــا كَغَياهـــــبٍ[1] وَســـــريتُهُنَّ غياهبًـــــا كَغـــــوارِبِ

نَجلُــو ظــلامَ اللَّيــلِ قبــلَ صــباحِهِ بلَظـــى زفيـــرٍ أَوْ بـــرأْسٍ شـــائِبِ

ففي هذا النص وظف ابن دراج دالة ثقافية معروفة، ترتبط بالرحيل والاغتراب، وتقترن بالبين والتشاؤم، وهي الغراب، ليعلن بداية رحلة شاقة أثارت هواجس الخوف والقلق. ووصف سيره وصحبه في دياجي المشقة والظلمة، فتارة يغطيهم موج البحر، وتارة سواد الليل، فيقضون الليل أنة وزفيرًا خوفًا من واقعهم الأسود، وقلقًا من المستقبل المجهول. ويعكس المعجم الشعري لابن دراج في هذا النص (الغراب، الناعب، غول، لجج، دياجي، غوارب، غياهب، ظلام، الليل، لظى، زفير) مدى عمق معاناته. بألفاظه المتشحة بالسواد، والحافلة بالأسى والحزن.

ويتساءل ابن دراج لشديد معاناته عن مآل رحلته وموعد انتهاء حالة التغرب والتشرد والضياع، والتخلص من الهموم والكروب قائلًا في مخاطبة منذر بن يحيى التجيبي[2]:(من المتقارب)

بِسَــيْرٍ يقــولُ الصَّــفا الصُّــمُّ منــه: أَمـــا للحـــوادِثِ قلـــبٌ رحـــيمُ؟!

أَمـــا يُســـتقالُ الزمـــانُ الكـــؤودُ؟ أَمـــا يُسْـــتَكَفُّ العـــذابُ الأَلـــيمُ؟

وإذا كانت الصخور الملساء (الصفا الصم) على صلابتها، وهي التي ربما كانت معادلًا موضوعيًا أو رمزيًا للتحدي والتحمل، تضيق بما يجري في هذه الرحلة، وما يحيط بابن دراج وصحبه، ضيقًا جعل ابن دراج يعبر عنه بالسؤال المستاء المتبرم، فما بالك بابن دراج؟. أسئلة يطرحها ابن دراج يعبر بها عن نفسيته القلقة والمضطربة، ومعاناته الكبيرة من التنقل والترحال والغربة المرة. وترى في تكرار (أما) إيقاعًا موسيقيًا مثيرًا، تردد

1 الغيهب من الليل: الشديد الظلمة. (ج) غياهب.
2 الديوان: ص: 272.

صداه في البيتين الأول والثاني، وجلب انتباه السامع، وشكل جزءًا من الهندسة العاطفية للعبارة، حاول فيه أن ينظم كلماته ويقيم أساسًا عاطفيًا بين جمله[1].

ثم صور ابن دراج رحلته الشاقة في الصحراء، ومعاناته، وتحمُّلَه الحرّ والقرّ، ووصف ناقته السريعة، وألقى على ذلك بعد عناء الرحيل شيئًا من التفاؤل، وبصيص الأمل، فقال[2]:(من المتقارب)

كَـــأَنَّ رواحِلَنَـــا فِـــي ضـــحاهُ صـــوادِي سَـمَامٍ[3] حـداها السَّـمُومُ

وَفِـــي كـــلِّ ليـــلٍ تَغَشَّـــى دُجـــاهُ فنـــــامَ ولكِنَّـــــهُ لا يُنـــــيمُ

نِجـــاءٌ[4] تَمَنَّـــى ثِمـــارَ النَّجـــاةِ ومـــن دونِهِـــنَّ رجـــاءٌ عَقِـــيمُ

وكـم أَعْقَـبَ الظِّـمْءَ حِسْـيٌ جَمُـومٌ وكـم عاقَـبَ الجـدبَ رِيٌّ جَمِـيمُ

وَفِـــي اســـمِ المظفَّـــرِ فـــأْلُ الحيـــاةِ لِيَحْيـــا الغريـــبُ بِـــهِ والمقـــيمُ

وفي هذا التصوير تتجلى ملامح القصيدة الجاهلية، إذ يصف ابن دراج رحلته إلى الممدوح، ويشبه معاناة رواحله وإحساسها بالعطش في الضحى (كَأَنَّ رواحِلَنَا فِي ضحاهُ) بطائر السمام الذي تلفحه رياح السموم بلظاها (صوادي سَمَامٍ حداها السَّمُومُ)، ثم يصف سيره في ظلمة الليل ومشاقه ومخاطره، مظهرًا خوفه وقلقه، وقد استحكم اليأس عليه، وخارت عزائمه، لكن أمله في ممدوحه (المظفر)، والراحة المنشودة بعد عناء الرحلة، ستحقق على يدي ممدوحه؛ لأنه عون على نوائب الدهر. وقد صورت هذه الرحلة "مأساة

1 انظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: ص: 277.
2 الديوان: ص: 272– 273.
3 السمام: ضرب من الطير نحو السمائي؛ والصوادي: العطاش.
4 النجاء: جمع نجو (بفتح فسكون)، وهو السحاب الذي أراق ماءه ثم مضى، أو لعله – كما يقول محقق الديوان – جمع ناج أو ناجية وهي الناقة السريعة تنجو براكبها، أي تسرع.

الشاعر المتكسب، الذي أمضّته ظروف الحياة، وغلبته أحزانها، وأرهقته متاعبها، فناء بكلكله، وعجز عن القيام بأعبائها"[1].

ومن تلك الرحل التي وصفها ابن دراج، وأبرز الأهوال والمشاق التي صادفها فيها، رحلته إلى المنصور بن أبي عامر في قرطبة، التي يقول فيها[2]: (من الطويل)

ولـو شـاهَدَتْنِي والصَّـواخِدُ[3] تَلْتَظِـي عَلَـيَّ ورقـراقُ السـراب يَمُـورُ

أُسَـلِّطُ حَـرَّ الهـاجِراتِ إذَا سَـطَا عَلَـى حُـرِّ وَجْهِـي والأَصـيلُ هَجِيـرُ

وأَسْتَنْشِـقُ النَّكْبـاءَ[4] وَهْـيَ بَـوارِحٌ وأَسْـتَوْطِئُ الرَّمْضـاءَ[5] وَهْـيَ تَفُـورُ

ولـو بَصُـرَت بِـي والسُّرى جُـلُّ عَزْمَتـي وجَرْسِـي لِجِنَّـانِ الفَـلاةِ سَـمِيرُ

وأَعْتَسِـفُ المَوْمَـاةَ[6] فِـي غَسَـقِ الـدُّجى وللأُسْـدِ فِـي غِيـلِ الغِيـاضِ زَئِيـرُ

لَقَـدْ أَيْقَنَـتْ أَنَّ المُنَـى طَـوْعُ هِمَّتِـي وَأَنِّـي بِعَطْـفِ العـامريِّ جَـدِيرُ

وفي هذه الأبيات يجمع ابن دراج بين التصوير والانفعال، فيصور المشاهد التي تصادفه في رحلته تصويرًا يعكس معاناة المسافر النفسية وقلقه وخوفه، وهو يريد أن يطبع في وجدان المتلقي وفكره صورة واضحة مما انطبع في نفسه[7]؛ إذ يصور سفره ليلًا ليلًا ونهارًا، ويجعلنا نمضي معه في رحلته، ونعاني معاناته، فيذكر اشتداد حر الشمس ولهيبها، الذي يعكس تلألؤ السراب وتحركه، والرياح النكباء التي تستنشق، ومسيره على الرمال الحارة، في صور شعرية تعبر عن قسوة رحيله ومعاناته الشديدة.

1 قصيدة المديح الأندلسية – دراسة تحليلية: فيروز الموسى، ص: 375.
2 الديوان: ص: 299–300.
3 الصواخد: شدة الحرّ.
4 النكباء: ريحٌ انحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال. (ج) نُكُبٌ.
5 الرمضاء: الأرض التي حَمِيَتْ من حر الشمس.
6 المَوْماة: الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس.
7 انظر: النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، ص: 421.

ومن تلك الرحل تلك الرحلة البحرية التي يصفها ويصور أهوالها بقوله[1]: (من الطويل)

وفِـي طَـيِّ أَسْـمَالِ الغَرِيـبِ غَرَائِـبٌ سَـكَنَّ شَـغافَ القلـبِ شـيبٌ وَوِلْـدانُ

يُـرَدِّدْنَ فِـي الأَحشـاءِ حَـزَّ مصـائِبٍ تزيـدُ ظَلامًـا لَيْلَهـا وَهْـيَ نِيـرانُ

إذا غِـيضَ مـاءُ البَحـرِ منهـا مَدَدْنَـهُ بِـدَمْعِ عيـونٍ يَمْتَـرِيهنَّ أَشْـجَانُ

وإِنْ سَـكَنَتْ عنَّـا الريـاحُ جـرى بنـا زَفِيـرٌ إِلَـى ذِكْـرِ الأَحِبَّـةِ حنَّـانُ

يقُلْـنَ ــ ومَـوْجِ البحْـرِ والهَـمِّ والـدُّجى تمـوجُ بنـا فِيهَـا عُيـونٌ وآذانُ ــ:

ألا هَـلْ إِلَـى الـدُّنيا مَعـادٌ وهـلْ لَنـا سِوى البحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوى الماءِ أَكْفانُ؟

يعكس هذا النص لحظة ابن دراج الوجودية، فيصف شدة الأهوال، وتلاطم الأمواج، وغيض ماء البحر، ويصورها كما يراها بنفسه المضطربة القلقة، التي تبرز تشاؤمه، ويصور انهمار الدموع بمفارقة الأهل والخلان والديار تصويرًا يدل على ذعره وخوفه. ويربط بين مشاق الرحلة والجانب الإنساني؛ (إذا غِيضَ ماءُ البَحرِ، مَدَدْنَهُ بِدَمْعِ عيونٍ)،(وإِنْ سَكَنَتْ عنَّا الرياحُ، جرى بنا زَفِيرٌ إِلَى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ). ولعله يقصد بهذه الرحلة كما يقول الدكتور أشرف نجا: "رحلة الحياة الشاقة التي خاض غمارها، وبخاصة في أثناء الفتنة "[2].

فابن دراج كما يقول الدكتور أحمد هيكل: " كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله،...، لم ينسَ أنه ذل من بعد عز، واحتاج بعد غنى، واضطر وهو الشاعر الكبير وسليل السادة من حكام قَسْطَلَّة إلى أن يقصد الناس ليبيع شعره بقوته وقوت أولاده"[3].

1 الديوان: ص: 87– 88.
2 قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية: أشرف نجا، ص: 222.
3 الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: أحمد هيكل، ص: 318.

وقد أصاب ابن دراج أيام إقامته بسَرَقُسْطة يسارًا وثروة، "فقد أتيح له فيها جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة"[1]، فتحدث في قصائده عما أصاب من الغنى والوجاهة، وكيف تبدلت حياته تبدلًا كاملًا، نحو قوله في مدح المنصور منذر بن يحيى التجيبي حين قدومه عليه[2]: (من الكامل)

وَلَقَـدْ وردْتُ ميـاهَ مـارِبَ حُفَّـلًا ... وأَسَـمْتُ خَيْلِـي وسْـطَ جنَّـةِ عَبْقَـرَا

وَنَظَمْـتُ للغيـدِ الحِسـانِ قَلائِـدًا ... مـن تـاجِ كِسـرى ذِي البهـاءِ وقَيْصَـرَا

وحَلَلْـتُ أَرْضًـا بُـدِّلَتْ حَصـباؤُها ... ذَهَبًـا يَـرِفُّ لناظِـرَيَّ وجَوْهَـرَا

كَـلَّا وَقَـدْ آنَسْـتُ مـن هُـودٍ هُـدًى ... ولَقِيـتُ يَعْـرُبَ فِـي القُيُـولِ وحِمْيَـرَا

وأَصَـبْتُ فِـي سَـبأٍ مُـوَرَّثَ مُلْكِـهِ ... يَسْـبِي المُلُـوكَ ولا يَـدِبُّ لَهَـا الضَّـرَا [3]

فكأَنَّمـا تابَعْـتُ تُبَّـعَ رافِعًـا ... أَعلامَـهُ مَلِكًـا يـدينُ لَـهُ الـوَرى

والحـارِثَ الجَفْنِـيَّ ممنُـوعَ الحِمـى ... بالخيـلِ والآسـادِ مَبـذولَ القِـرى

وحَططْـتُ رحْلـي بَـيْنَ نـارَيْ حـاتِمٍ ... أَيَّـامَ يَقـرِي مُوسِـرًا أَوْ مُعْسِـرَا

وَلَقِيـتُ زَيـدَ الخَيـلِ تَحْـتَ عَجاجَـةٍ ... يكسُو غلائِلُهـا الجِيـادَ الضُّمَّـرَا

وعَقَـدْتُ فِـي يَمَـنٍ مَواثِـقَ ذِمَّـةٍ ... مشـدودةِ الأَسبـابِ مُوثَقَـةِ العُـرى

---

1 الديوان: ص: 72.
2 المصدر نفسه: ص: 128-130.
3 " يدب له الضراءُ ويمسي له الخَمرُ"، مثل يضرب للرجل يختل صاحبه.
الضراء: الشجر الملتف في الوادي، وقال ابن الأعرابي الضراء: ما انخفض من الأرض.
الخمر: ما وراك من جرف أو حبل رمل.
انظر: مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص: 417.

وَخَطَطْتُ بَيْنَ جِفانِهـــــا وجُفونِهـــا حَرَمًـــا أَبَـــتْ حُرُماتُـــهُ أَن تُخْفَـــرَا

وفـي هـذا الـنص يتكـئ ابـن دراج علـى موروثـه التـاريخي؛ إذ اسـتدعى أمكنـة وشخصيات تاريخية لها مكانتها واسمها الذي يوحي بدلالات ثابتة لدى المتلقي. فكأن الشـاعر فـي سـعته ويسـاره ووجاهتـه ومكانتـه لـدى هذا الممدوح، قد ورد المياه الصـافية الجمـة كمـاء مـأرب الـذي مثـل أيـام الازدهـار، وكـأن الشـاعر يـرى جنـات مـأرب قبـل انـدثارها[1]، وشـعر عنـد ممدوحـه بسـعادة غـامرة أحسسـته وسـط جنـة عبقـر. وأصـاب مـن اليسار كثيرًا، وكأنه نظم قلائد ثمينة للحسان من تاجي كسرى وقيصر، ورأى في موطن ممدوحـه أرضًـا حصـباؤها ذهـب وجـوهر، وتمتـع بالهـدوء والطمأنينـة، وتغنـى بنسـب ممدوحيه، فأنس بقوم هود، وأصاب من ملك سبأ وتبع، ولقي الحارث الجفني، وقد نزل بكرم فائق ككرم حاتم الطائي. وكأن ممدوح ابن دراج يُحيي بأعماله سيرة أجداده اليمنيين وشمائلهم، ويتضح ذلك في قول ابن دراج لممدوحه[2]: (من الكامل)

تِلْـــكَ البُحُـــورُ تتابَعَـــتْ وخَلَفْتَهـــا ســـعيًا فكُنْـــتَ الجـــوهَرَ المُتَخَيَّـــرَا

ولَقَـــــدْ نَمَـــــوْكَ وِلادَةً وسِـــــيادَةً وَكَسَـــوْكَ عِـــزًّا وابْتَنَـــوْا لَـــكَ مَفْخَـــرَا

لقد منح ابن دراج كلماته في هذا النص دفء ما فقده، وماء ما غص به، وأضفى عليها لون السعادة، فقد أشعرته إقامته بسرقُسْطة بجو من الاستقرار المكاني الذي فقده في حياته، وأسقطه على استقرار الأماكن التاريخية وحضارتها، وقصد من استدعاء تلك الشخصيات التي اشتهرت بالشجاعة والكرم والجود إسباغ صفاتهم على ممدوحه وإحياء سيرة أجداد ممدوحه وشمائلهم. وكأن ابن دراج ــ كما يرى محقق الديوان ــ "رأى في حياته في ظل التجيبيين صورة ــ مصغرة بلا شك ــ من حياته الماضية في رحاب العامريين، حين كان شاعر دولتهم (الرسمي) وكاتب الرسائل في ديوانهم"[3].

1 انظر: آثار البلاد وأخبار العباد: تصنيف زكريا بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت، ص: 60.
2 الديوان: ص: 130.
3 الديوان: ص: 72.

رابعًا ــ وصف الشوق والحنين:

كان شوق ابن دراج وحنينه إلى موطنه مظهرًا من مظاهر رحلته وقطعة من نسيجها، فيها يصف غرامه الملتهب وشوقه الشديد للديار، لكونه عاش محنة الاغتراب القسري عن موطنه، وقديمًا قال الجاحظ: " من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة "[1]، ومما صور به ابن دراج هذا الاشتياق قوله[2]:(من البسيط)

لله مـــن وَطَـــنٍ قَلْبِـــي لَـــهُ وَطَـــنٌ يَبْلَـــى وأَبْلَـــى وَمَـــا تَبْلَـــى فَجائِعُـــهُ

لا يَسْـأَمُ الـدَّهْرُ مـن شَـوْقٍ يُطـالِعُنِي مِنـــهُ ومـــن زَفْـــرةٍ مِنِّـــي تُطَالِعُـــهُ

والنزعة الإنسانية في شعر ابن دراج تتجلى أظهر ما تتجلى بصور الحنين والشوق للوطن، والتلذذ باستعادة الذكريات الماضية التي يعلل بها نفسه، وتثير شجوه، وتزيد ألمه بفراق الوطن، والأسى على مغادرته، فمكانته عظيمة (لله من وَطَنٍ)، وألم فراقه يتجلى في كلمة البلاء التي تجسد ألم الرحيل.

ويشتد به الحنين عندما يتذكر قرطبة الغراء مدينته قائلًا[3]:(من الكامل)

واجْـنَحْ لِقُرْطُبَـةٍ فَعـانِقْ تُرْبَهـا عَنِّـــي بِمِثْـــلِ جَـــوانِحِي وتَرَائِبِـــي

حَيْـثُ اسْـتَكَانَتْ للعَفَـاءِ منـازِلِي وَهَـــوَتْ بـــأَفلاذِ الفـــؤادِ نَجَـــائِبِي

وإذا ذكر ابن دراج موطنه قرطبة، فإنه يقصد بها المعاهد التي قضى فيها حياته، ومواطن الطبيعة الجميلة التي تهيجه وتثير أحزانه، فيحن ويشتاق إليها. وكلما بعدت المسافة عن وطنه، تملكه الشوق والحنين، وازداد لهيبهما، فيقول بألم مُمِضّ[4]: (من المتقارب)

1 رسائل الجاحظ، رسالة في الحنين إلى الأوطان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص: 385/2.
2 المصدر السابق: ص: 138.
3 الديوان: ص: 167.
4 المصدر نفسه: ص: 271.

لقـــد شَـــطَّ روضٌ إِلَيْـــهِ أَحِـــنُّ وغـــارَتْ مِيـــاهٌ إليهـــا أَهـــيمُ

وهكذا، كان ابن دراج؛ إذ أمضى حياته بعيدًا عن وطنه، معللًا نفسه بالذكرى واسترجاع الماضي المجيد، يحرقه ألم الشوق، ويكويه السعي وراء الرزق والأمن.

نتائج البحث:

- لم يخالف ابن دراج منهج القدماء في وصف الرحلة؛ فقد صور الأهوال والمتاعب التي صادفته، وأطنب في شرحها، وعكس في تصويره نفسيته المضطربة التي تقاذفتها هموم الحياة كما تقاذفت أمواج البحر والفيافي أهله وأحبته، ليضع عصا الترحال في فناء الممدوح.
- ركز في تصوير معاناته على الجوانب الإنسانية والاجتماعية، ولاسيما معاناة ابنته الصغيرة؛ ليستدر عطف الممدوحين، ويستثير شفقتهم.
- أطبق التشاؤم على نفسية ابن دراج، وانعكس الحزن الأسود على شعره، فاتشح معجمه الشعري بالسواد، وكثرت ألفاظ النفي في قصائده نحو:

فليس لنا إِلَى وَطَنٍ مَرَدٌّ ولا فِي دارِ قومٍ من مُقامِ

فالفتنة القرطبية التي اكتوى بنارها أتت على الأخضر واليابس، وشردته والأندلسيين، فضربوا في آفاق الأرض بحثًا عن الأمن والاستقرار.

- أكثر الشاعر في شكايته من الزمن ومصائبه من صيغ الجمع نحو: (دواهٍ، مهالك، صواخد، الهاجرات...الخ)؛ ليوضح البون الشاسع بين استقراره في الأمس وتشرده في الحاضر. بل إن الشاعر بات يجد الأنس في المهالك من كثرتها (وتؤنس بالمهالك كل نفس)، (وأنست بالأهوال)، وهي صور فنية معبرة لا تخلو من الطرافة والغرابة في الوقت نفسه.
- إن رحلة ابن دراج أشبه برحلة تيه لا نهاية لها، فهو يدور وأسرته في حلقة مفرغة، كل مصيبة تسلمه إلى مصيبة أخرى أشد خطورة من سابقتها، وكل رحلة مرَّة تسلمه إلى رحلة مغايرة أشد مرارة منها، وهذا ما يدل على ضعف الأمل في نفسيته المتهالكة.
- لقد حاول الشاعر أن يفلت من ربقة اليأس، ويهرب من واقعه الأليم إلى صومعة الخيال متلمسًا الأمل والنجاة من الموت النفسي الذي أحاط به من كل صوب، إلا أنه سرعان ما كان يستفيق من حلمه ليصطدم بصخرة الواقع، ويتجرع مرارة الحياة.

المصادر والمراجع

1- آثار البلاد وأخبار العباد: تصنيف زكريا بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت.

2- إحياء علوم الدين: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

3- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: د. أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، 1985.

4- تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1973.

5- دراسات أدبية: د. أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980.

6- ديوان ابن دراج القسطلي: حققه وعلق عليه وقدم له د. محمود مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1، 1381هـ/1961م.

7- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م.

8- الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري): د. ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1415هـ/1995م.

9- رسائل الجاحظ، رسالة في الحنين إلى الأوطان: لأبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الجيل للطباعة، د.ت.

10- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، ط1، 1993.

11- قصيدة المديح الأندلسية – دراسة تحليلية: د. فيروز الموسى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.

12- قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية- عصر الطوائف: د. أشرف نجا، د.ت.

13- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1978.

14– لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط6، 1417هـ/ 1997م.

15– النقد الأدبي الحديث، تأليف د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، د.ط، 1986.

16– يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، شرح وتحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.

فهرس الدوريات والمجلات

1– الرحلة العربية في المحيط الهندي: د. صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، الكويت، 13(4)، 1983.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2017/12/1